الغزالى وعلم النفس

للاستاذ حمدى الحسينى

— ٥ —

النزوع

النزوع أو الإرادة أو العمل ، هو المظهر الثالث للشعور الانسانى ، وما دمنا قد تحدثنا فى المقالين السابقين من هذه السلسلة عن المظهرين الأولين للشعور عند الغزالى وهما المعرفة والوجدان ، أو على حد تعبير الغزالى العلم والحال ، نرى من الحق أن نتحدث هذه المرة عن المظهر الثالث للشعور وهو النزوع أو العمل . وبهذا نكون قد تحدثنا عن أجزاء العملية العقلية عند الغزالى تامة ، وصورنا مظاهر الشعور الثلاثة فى نظر هذا العبقرى كاملة .

وها نحن أولاء الآن نورد وصف النزوع فى علم النفس الحديث فنقابله بما سنورده من وصف لهذا النزوع عند الغزالى . يقول النفسيون (١) : النزوع هو الوجه الثالث لأية عملية عقلية ، وهو محاولة « أو جهد » يبذله الانسان ليستديم الارتياح الذى وجده ، أو يبتعد عما شعر به من الألم والضيق . فهو ما يشعر به الانسان عندما يكون هو الفعال نفسياً ، فيؤثر فى ما يجرى فى نفسه من الخواطر منتقلا من اللحظة التى هو فيها ، نازعاً نحو أخرى آتية أو مبتعداً عنها فى حين أنه فى الوجدان يكون هو المتأثر المنفعل .

وليس الإدراك والوجدان والنزوع أجزاء منفصلة يتكون من مجموعها الشعور ، إنما هى اوجه « ومظاهر لشىء » واحد يمكن تميزها بعضها عن بعض بالفكر ليس الا . وهى متصلة بعضها ببعض اتصالاً وثيقاً ، وتوجد فى كل عملية عقلية ، وتحدث كلها فى آن واحد . فالإدراك لا يوجد من غير أن يصحبه وجدان ، ولا يوجد وجدان بغير نزوع أو ادراك ، والنزوع لا يوجد بدون اخويه الآخرين .

فالشعور وحدة متصل بعضها ببعض . والإدراك والوجدان والنزوع مظاهر ثلاثة لتلك الوحدة » .

ولنر الآن ما كتبه العبقرى العظيم أبو حامد الغزالى فى هذا الموضوع « أعلم أن النية والإرادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد ، وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها أمران ، علم وعمل . والعلم يقدم لأنه أصله وشرطه ؛ والعمل يتبعه لأنه ثمرته وفرعه ، وذلك لأن كل عمل ، أعنى كل حركة وسكون اختيارى فإنه لا يتم إلا بثلاثة أمور : علم وإرادة وقدرة ، لأنه لا يريد الإنسان مالا يعلمه ، فلا بد وأن يعلم ولا يعمل ما لم يرد فلا بد من الارادة. ومعنى الارادة انبعاث القلب إلى ما يراه موافقاً للغرض ، إما فى الحال أو المآل . فقد خلق الله الانسان بحيث يوافقه بعض الأمور ويلائم غرضه ، ويخالفه بعض الأمور ، فيحتاج إلى جلب الملائم الموافق إلى نفسه ، ودفع الضار المخالف عن نفسه ، فافتقر بالضرورة إلى معرفة وإدراك للشىء الضر والنافع حتى يجلب هذا ويهرب من هذا . فإن من لا يبصر الغذاء ولا يعرفه لا يمكنه أن يتناوله . ومن لا يبصر النار لا يمكنه الهرب منها؛ فخلق الله الهداية والمعرفة وجعل لها أسباباً وهى الحواس الظاهرة والباطنة .

ثم لو أبصر الانسان الغذاء وعرف أنه موافق له فلا يكفيه ذلك للتناول ما لم يكن فيه ميل إليه ورغبة فيه وشهوة له باعثة عليه . إذ المريض يرى الغذاء ويعلم أنه موافق ولا يمكنه التناول لعدم الرغبة والميل ، فخلق الله له الرغبة والميل والإرادة ، وأعنى به نزوعاً من نفسه إليه وتوجيهاً فى قلبه نحوه . ثم ذلك لا يكفيه ، فكم من شاهد طعاماً راغب فيه يريد تناوله عاجز عنه لكونه زمناً ، فخلقت له القدرة والأعضاء المتحركة حتى يتم التناول . والعضو لا يتحرك إلا بالقدرة . والقدرة تنتظر الداعية الباعثة ، والداعية تنتظر العلم والمعرفة أو الظن أو الاعتقاد وهو أن يقوى فى نفسه كون الشىء موافقاً له ، فإذا جزمت المعرفة بأن الشىء موافق ولا بد وأن يفعل وسلمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه انبعثت الإرادة وتحقق الميل . فإذا انبعثت الإرادة انتهضت القدرة لتحريك الأعضاء . فالقدرة خادمة للارادة ، والارادة تابعة لحكم الاعتقاد

---

(١) اصول علم النفس للاستاذ أمين مرسى قنديل

والمعرفة فالنية عبارة عن الصفة المتوسطة وهي الإرادة . والانبعاث النفس بحكم الرغبة والميل إلى ما هو موافق للغرض إما في الحال وأما في المآل فالمحرك الأول هو الغرض المطلوب وهو الباعث ، والغرض الباعث هو المقصد المنوى والانبعاث هو القصد والنية . وانهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل ، إلا أن انهاض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد وقد يكون بباعثين اجتمعا في فعل واحد . وإذا كان بباعثين فقد يكون كل واحد بحيث لو انفرد لكان ملبياً بانهاض القدرة ؛ وقد يكون كل واحد قاصراً عنه إلا بالاجتماع . وقد يكون أحدهما كافياً لولا الآخر لكن الآخر انهض عاضداً له ومعاوناً »

حقاً أن الإمام الغزالي رحمه الله قد ظهر في هذه القطعة النفسية الجليلة الخالدة التي انتزعناها من كتابه احياء علوم الدين عالماً نفسياً كبيراً وعبقرياً في فهم الطبائع البشرية وأسرار النفس الإنسانية خطيراً . قد ظهر الغزالي في هذه القطعة فاهماً للشعور الإنساني كل الفهم ، مدركاً للعملية العقلية كل الإدراك ، فهو لم يعالج في هذه القطعة موضوع (العمل) فحسب بل عالج جملة الشعور وكلية العملية العقلية . عالجها هذه المعالجة الدقيقة المتقنة السهلة الواضحة المبسطة التي تدل دلالة تامة على أن الرجل قد أوصله تأمله في نفسه وملاحظته لغيره إلى أعمق اغوار النفس البشرية فتغلغل في تلك الاغوار البعيدة تغلغل القوى القادر وعاد يحمل إلى العقل البشري هذه الأسرار العظيمة عن النفس البشرية والطبائع الإنسانية فينتفع بها الناس كافة . ونحن لا نحب أن نترك هذه القطعة النفسية العظيمة الفائدة دون أن نشير إلى التشابه بين ما جاء فيها وما جاء على قلم العالم الاجتماعي الكبير غوستاف لوبون في كتابه الآراء والمعتقدات عن اللذة والألم كعاملين للحركة وباعثين للرغبة . يقول الدكتور لوبون :

« اللذة والألم يورثان الرغبة ، أي الرغبة في بلوغ اللذة واجتناب الألم . فالرغبة هي المحرك الأساسي للارادة والباعث على العمل ، والرغبة هي التي توحي إلى الإرادة التي تكون بدونها معدومة . وعلى نسبة الرغبة تكون الإرادة قوية أو ضعيفة . ومع ذلك لا يجوز خلط الإرادة بالرغبة كما فعل كثير من الفلاسفة كشوبنهور وكوندياك . فإذا كانت الرغبة مصدر كل ما يراد فإنه يرغب في أمور كثيرة لا تراد . فالارادة تتضمن التأمل والقصد والتنفيذ . إلى أن يقول :

والأمثل ان الرغبة لا الرغبة نفسها . إذ هو عبارة عن استعداد نفسي يجعل الإنسان يعتقد إمكان تحقيق ما فيه من رغبة . فقد يرغب المرء في شيء دون أن يأمله ، فعلى قلة من يأملون الثروة نرى جميع الناس يرغبون فيها ، وكذلك العلماء فانهم يرغبون في اكتشاف علة العلل مع أنهم لا يأملون أن يصلوا إليه . وقد تقرب الرغبة من الأمل في بعض الأحيان فتختلط به . فالإنسان في لعبة الدولاب يرغب في الربح ويأمله . ويمكننا أن نعرف الأمل باللذة المرجوة . وفي الغالب يكون الأمل في دور الرجاء أشعث للعلة منه في إيجازه ، وسبب ذلك واضح ، فاللذة المنجزة تكون محدودة مقداراً وزماناً مع أنه لاحد لما يوجه الأمل من أحلام ولم يوجد سلطان الأمل وفتنته إلا لاشتماله على ما في اللذة من ممكنات . فهو عصا سحر قادرة على تحويل كل شيء . وهذا هو سر كون دعاة التجدد لم يفعلوا سوى إقامة أمل مكان آخر » .

ولا يفوتنا بعد كل ما تقدم عن النزوع أن نتحدث قليلا عن سلوك الغزالي بالنسبة إلى أهدافه ، يقول الغزالي :

(قد خلق الإنسان بحيث يوافقه بعض الأمور ويخالفه بعضها ، فيحتاج إلى جلب الملائم الموافق ودفع الضار المنافي) وهو بهذا قد وضع قاعدة جلب اللذة ودفع الألم . وقال في موضع آخر :

(المحرك الأول هو الغرض المطلوب وهو الباعث . والغرض الباعث هو القصد المنوى ، وهو بهذا قد وضع قاعدة الهدف الباعث . ولننظر الآن لنعرف ما هو الهدف الباعث للغزالي في حياته . وأين اللذة المجلوبة في هذا الهدف وأين الألم المدفوع . نريد أن نعرف هذا لنستطيع أن نعلل سلوك هذا الرجل على ضوء علم النفس الذي يشرف علينا من هذه السطور التي سطرها قلمه مغموساً بعصارة نفسه وخلاصة حياته .

قد وضع الغزالي لنفسه هدفاً يجلب بالحصول عليه اللذة وهو الجنة ، فالجنة هدف الغزالي الباعث له على ذلك السلوك الذي سلكه في حياته ؛ وقد كانت العبادة هي الطريق — أو الوسيلة — الموصلة